

- الفصل الرابع -

(كل شيء في العالم مبني على قاعدة الأخذ والعطاء
أو التبادل وهذا هو التوازن السلبي والايجابي)

تفارق صاحبانا وسار كل طريقه فسار الشيخ الى احدى
القرى المجاورة للأهرام يستضيف الاجاويد وسار نجيب الى
بيته مفكراً متأملاً بما سسمع واجتاز جسر قصر النيل ولم تكن
تلك الضوضاء وحركة السيارات والعربات وجلبة الناس لتلبيه
عما كان يتأمل فيه وتنبهه من سباته العميق لولا أنه أحس
بيد امسكته بكتفه وهزته وسمع صوتاً يناديه باسمه فالتفت
الى ورائه فرأى أحد اصحابه ينتسم له بحياء فرد التحية بأحسن
منها فقال له صاحبه مالي أراك يا نجيب دائماً مفكراً لقد
اضنيت جسمك العاك تريدان تغير نظام الكون ؟ دع عنك
هذه الافكار وكن كبقية الاخوان فرحاً جزلاً طروباً ، اني
مدعو الليلة الى حفلة عند احد المعارف فتعال معي فسيغنيننا
احد كبار المغنين المشهورين على تحت مشهور أيضاً ، فهي
ليلة أنس وطرب وسمع فيها بنا وسوف تدعولي بالخير وما

زال به حتى قبل وسار معه وكان هذا الصديق كاتباً أديباً حلو
الحديث لطيف المعشر واسمه فريد فأخذ الاثنان يتعاهدان
في أمور شتى وقد نسي نجيب ما كان يفكر فيه فأخذ يضحك
مع فريد مما كان هذا يلقيه على مسامحة من مستماع النكت
وكان فريد في حالة سرور عظيم يطنح البشر على وجهه وبقهقه
طويلاً لكل نكتة يلقيها وقال لنجيب والله أني يا صاح لم
أذكر أني يوماً من الايام قد ضحكك مثل اليوم فرينا يعطينا
خير هذا الضحك

ولما كان في الوقت متسع أخذ الاثنان يتمشيان على
هذه الحالة على ضفاف النيل وكانت المراكب من شراعية
وبخارية متلازمة الانوار تخترق الماء فهابا وإيابا وحواليها عدد
كبير من الزوارق مكتظة بالناس طالبي النزهة تروح ونجىء
عن عليها وكانت سطوح الذهبيات الراسية على شاطئ النهر
خاصة أيضاً بسكانها وزوارعهم وكانت أنوار جميع هذه المراكب
وأنوار الجسر والمنازل والفنادق القريبة مع أنوار تلك السماء
الصافية تنعكس على مياه النهر العظيم المادئة فتزيد النظر
بهجة تأخذ بجامع القلوب فأثر هذا المنظر في صاحبينا جدا

فقال فريد لنجيب هلم يا أخي نجاري القوم في عملهم ونفتقل
من الارض الى الماء فمأخذ نحن أيضاً ساعة زمن زورقاً فلذّة
العيش في التنقل حقاً أن هذه الليلة هي من الليالي النادرة
فوافق نجيب على هذه الفكرة بكل ارتياح وناديا بأحد
الزوارق فجاءها وركبا وجملا يقذفان والرئيس محمد ماسك
الدفعة بيديه الاثنتين وكانا يتسابقان مع بقية الزوارق ضاحكين
فرحين وفيما هما كذلك اذ سمع فريد ضحكا خيلاً له أنه يعرف
الضاحك فامتقع لونه قليلاً كأنه شعر بحلول العاصفة فقال
لنجيب رويدك يا أخي اسمع أليست هذه ضحكة فريدة :
« وكانت فريدة هذه فتاة في مستقبل العمر بارعة الجمال أديبة
متعلمة هام فريد في حبها من بضع سنوات حباً عذرياً كاد
يذهب بلبه لولا طبيعته الميالة الى اللهو والطرب وما كان يختلفه
لنفسه من الاسباب ليموه عن فكره التفكير بمن كان يهوى »
هيا بنا نقرب من الزورق حيث الصوت لنتحقق من الامر
فانصت نجيب قليلاً فعلم أن الضحك هو ضحك فريدة ولعلمه
بما سيكون لهذا المشهد من التأثير على فريد خصوصاً إذا كانت
فريدة مع شخص آخر كما يدل الواقع بدا له أن يغالطه

ويحوله عن عزمه على اللحاق بها والاقتراب منها فقال له أظن
أنك اخطأت التقدير لاني لا أرى أقل مشابهة بين الصوتين
ثم ما الذي يأتي بفريدة الآن الى هنا في هذه الساعة ، واذا
فرضنا المستحيل وكانت هي فانها انما تكون مع عائلتها أو
أحد اخوتها واقترابنا منها ليس من اللياقة والادب بشيء
فدع عنك الآن فريدة واترك التفكير بها ولنعد الى ما نحن
فيه فما قلته من قبل لي بخصوص التفكير بالكون والطبيعة
أقوله لك الآن بخصوص فريدة كما قال الشاعر

لأنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك اذا فعلت عظيم
فلم يستمع فريد لهذا القول بل أخذ يقذف بسرعة
طلباً للحاق بهذا الزورق وسأيره نجيب في عمله لانه رأى أن
الحالة مع صاحبه لا تجدي فيها المعاكسة فعاو بعد بضع دقائق
كانا قد اقتربا جداً من الزورق فسارا بمحاذاته قليلا ولم يكده
فريد. يلقي نظره على من فيه حتى اصفر لونه وتتلج جسمه
وارتخت مفاصله فسقط المقذاف من يده وارتدى على نجيب
كأنه صنع من هول ما رأى واخذ يتنهد ويتعجب
كالأطفال فحول نجيب سير زورقها بأقل من لمح البصر

ثم لا ينتبه احد اليهما واعطى المقاذيف الى الرئيس محمد وامره
بالرجوع الى الشاطئ واخذ هو يعالج حالة صاحبه محاولا
تعزيتته على قدر الامكان وهكذا تحولت الحال من فرح
عظيم الى كدر وحزن اليم فقد انقلب المعزى معزيا والمعزى
معزاً ولما بلغا الشاطئ نقد نجيب صاحب الزورق اجرتة
واخذ بفريده الى منزله ولم يتركه طول تلك الليلة وفي الصباح
لم يشأ نجيب ايضاً ان يدع فريدا وحده فدعا لمرافقته واخذ
يقص عليه ما حضره من الاخبار والمبر محاولا تخفيف آلامه
وتحويل افكاره عن صدمة الامس وكان من جملة الاخبار
الحديث عن الشيخ فسري عن فريد بعض الشيء وطلب الى
نجيب ان يذهبا سويا لمقابلته حسب المتفق

وعندما ازف الوقت جاء الاثنان الى الجزيرة فوجدوا
الشيخ قد سبقهما فسالما عليه واستأذنه نجيب بتقديم صديقه
اليه فقبل ولكن على ما بدا عليه كان قبوله عن غير ارتياح
كلي ثم نظر اليهما مايا مستفحفا مستقرثا وقال موجهما
الكلام الي نجيب . مالي اراك يا صاح وصاحبك وقد بدت
على عيا كما آثار السهر والاهماك والحزن فهل حدث امر

مكروه لا يسمع الله حتى اثر عليهما هكذا فان حالتكما على ما تبين لي ليست بالعادية المألوفة فاخبره بنجيب بكل ما حصل من حين ما فارقه بالامس الى ساعة ملاقاته الآن قاصدا عليه جميع ذلك حرفا حرفا فتعجب الشيخ ولكن عجبه لم يكن لوقوع الامر بل لمصادفته الموضوع الذي سيكون حديث اليوم فقال لقد سألتني بالامس عن رأي فيما لو كان يمكن للانسان بعد رقيه الحالي ان يجد لنفسه طريقة بها يتوصل الى ان يكيف حاله على شكل اعدل من حالته الراهنة تفيدته ولا تغزر بغيره من موجودات الطبيعة لتكون حياته اهدأ واهناً منها الآن وقد شاءت الاقدار والصدف ان تساعدني على افهامك ذلك لتكون على اقتناع تام من نظريتي ففي حادثكما بالامس الدليل القاطع والبرهان الساطع فاعلموا ان كل شيء في العالم حيث انه جزء من الينبوع العظيم وقد تحول كل الى مظاهر وقوى مختلفة تحت ناموس التوازن انبى على قاعدة التبادل او الاخذ والعطاء لهذا فانه ليستحيل على الانسان اذا كان يريد المحافظة على درجته في الرقي وتدرجه فيها وعلى كيانه الحالي ان يتماص من هذه القاعدة

ولكنه يمكنه أن ياطف منها بعض الشيء لذا فكل شيء
يفعله المرء أو يشعر به له مقابل أو ثمن أو ضد فلا فرح بلا
حزن وله سعادة بلا شقاء ولا تعب بلا راحة ولا لذة بلا
مرارة ليبقى ناموس التوازن السلي والايجابي دائماً متسلطاً
ناذلو اختل ولو ذرة واحدة لانعدم كل شيء

لقد تركتني وأنت منقبض الصدر فلم تأبث حتى لقيت
فريداً فشرح صدرك فسرتماهنية ولما كان فرح فريد شديداً
كذلك كان خزنه شديداً وكما كان لك معزياً هكذا كنت له
أنت أيضاً فقد قبل إن الجزء من صنف العمل واعلم
أن سرور تلك المرأة سيعقبه مرارة وكدر يوازيان شقاء
فريد وما يقال عن فريدة يقال عن صاحبها فيوم لك ويوم
عليك . يأكل الانسان الحيوان والنبات وهما في دورهما
يقنذيان به ثم أن التراب الذي منه تغذوا يتغذى هو أيضاً

منهم ويسمد بهم

يتلذذ الانسان بالما كولات الشهية من لحوم وخلافها
ولكن تلك اللذة تكافه ثمناً غالياً يدفعه من تعبته ومن صحته
ومن حياته . يتلذذ بالماهي والشهوات ولكنه يضني جسمه

ويقهّر عمره . تلبس الملابس لتقيك البرد والحر فتنعم بها
ولكنك في الحقيقة تدفع ثمن هذا النعم من جني تعبك
ومن اضناء جسمك لانك بترك له تقبل نحو قوته ومناغته .
تأكل الحلو فتتلاذ به وتأكل المر فتتمرر فلولا مرارة المر
لما عرفت طعم الحلو ولولا التعب لما عرفت لذة الراحة ولقد
قال الشاعر

صداً لما استجمعا حسناً والضحك يظهر حسنه الضحك
لقد قلت لي أن الانسان ترقى كثيراً وأنا أجازيك
وأقول رقي ولكن في الحقيقة ليس هذا سوى تحول أو
تغيير مظاهر دون أقل افادة حقيقية أعني دون أن يزيد له
شيء عن شيء . تأنق في ما كله وملبسه وسكنه فعلى قدر
ملاذته هذه دفع لها ثمناً من قصر حياته ومضايقته لحرته ومن
أمراضه وتعبه وشقائه . ترقى في نفسه وفي تصوره فعلى قدر
الزيادة زاد في ضعف جسمه وفي آلامه الروحانية

يضر بك زيد فيو جسمك فتتألم في جسمك وفي نفسك
لأن ما يتألم منه الجسم تشعر به النفس وما تتألم منه النفس
يؤثر على الجسم وبعد ذلك يسكن الألم فتشعر بالذة ثم يجازى

زيد فترتاح نفسك وقد تكون مجازاة زيد أن رأساً أو
بواسطة لأنه على كل يجب أن يدفع ثمن عمله أما بعذابه الجسمي
مضاعفاً أو بعذابه الروحي مضاعفاً إذا لم يشترك الجسم
والروح في الثمن لسبب ما لأنه إذا تألم الجسم فقط يجب أن
يكون على قدر التألم الجسمي والروحي وإذا تألمت الروح
فقط يجب أيضاً أن تكون آلامها كآلام المعتدى عليه
جسماً وروحاً

يتفنن الإنسان بتحضير المأكولات اللذيذة فيتلذذ
بها فتقوى به حاسة اللذة ويصير على قدر اللذة من اللذيذ
يشعر بالكراهة من الكراهة . لقد أصبح الإنسان الآن يطير
في الهواء وينتقل بسرعة من مكان إلى مكان فعلى قدر فرجه
بالسرعة صار يتأفف من البطء ولربما ما يعده الآن بطئاً
كان يعده من قبل سرعة يفرخ بها والامثلة على هذا هي في
كل شيء لذا ترى أن النسبة معها تغيرت المظاهر هي دائماً بين
التبادل محفوظاً وتواها أيضاً واضحة فهاسن له من اللوائح
والشرائع وما استنبطه من القواعد قصد ذلك أو لم يقصد
عرف هذه الحقيقة أو لم يعرف لأنه لا يمكنه أن يخرج عن

الطبيعه فهو منها لابل هو مجتمع الممالك الثلاث وهياة للعالمين
المادي والروحي

لقد قال الكتاب أحب قريبك كنفسك وافضل
بغيرك ما تريد أن يفعله غيرك بك لأن الأناية الانسانية
تلازم الانسان أن لا يرضى لنفسه الا كل خير وراحة فمن أحب
قريبه كنفسه أراد له طبعاً ما يريد له لنفسه وعامله كما يعامل
نفسه ولما كان التبادل بين الناس عظيماً بالنسبة لجمعيتهم
الانسانية وحالتهم المعيشية ولاشتباك مصالحهم بعضهم مع
بعض كتبت هذه الحكمة استناداً على هذه القاعدة تخفيفاً
لألامهم بعضهم من بعض وتقوية لجمعيتهم ضد الكائنات
الأخرى لأنهم بما يدخرون من القوى الايجابية في ذواتهم
بعدم أضاعتها في تكافهم مع بعض يتقاومون سلبية تلك
الكائنات الأخرى. هذا ما قيل فيما مضى وكان ديننا وهو
لا يختلف كثيراً معنى عما يقال اليوم قانوناً. أن حرية المرء يجب
أن تنتهي حيث يتبدىء واجبه نحو الغير فمن هنا يتضح أيضاً
انه لم يخرج عن هذه القاعدة لافي دينه ولا معاملته الاجتماعية
الاتراه في صلواته خالقه يعطي لياخذ. يقرب القرابين لينال

الجزء ينذر النذور ليحصل على ما يرجو يسبح ويمجد لينال
المغفرة وهلم جرا مما هو ظاهر جلي في كل أعماله وأحواله
وأفكاره أن روحياً أو جسدياً فعلى هذا التوازن السلبي
والإيجابي انبنت سنة التبادل والاختذ والعطاء وهي أيضاً
الاس الذي منه ظهر العدل وما العدل سوى التوازن فعلى
قدر الأخذ يجب العطاء وعلى قدر الأذية يجب التعويض
وعلى قدر التعب يجب الراحة واعلم ان ما قيل بهذا المبحث
عن الإنسان يقال أيضاً عن الحيوان وينطبق على كل شيء
آخر بتظاهر واشكال وطرق شتى لان قانون التوازن يسرى
على كل ما في الاكوان والعوالم
فقال نجيب واكن اذا صح هذا ولا اراه الا صحيحاً
فماذا تعمل اسباب الانحلال والانقلاب والتغير اذا كانت
دائماً توامدس التوازن محفوظة والتبادل بالقسط العادل
حقيقياً فتبسم الشيخ وقال بورك فيك يا نجيب ان سؤالك
هذا لم يفتأ جئني على غرة بل كنت متوقفا اياه منك وسأجيبك
عليه في الغد ان كان في العمر بقية .

وكان الاثنان نجيب وفريد ينصتان بكل انتباه الى

كل كلمة كان الشيخ يلقبها غير ان فريد وكان لم يعتد على
ترويض فكره على مثل هذه المباحث قد استفزته الفرح وأخذ
يقبل نجيباً شاكراً له استصحابه معه وتقديمه الى الشيخ ثم
قام الى الشيخ يصفحه مظهراً له اغتباطه بما سمع منه راجياً
أن يسمح له بالعودة اليه ثانياً فأجاب الشيخ اذا كانت هذه
المسائل مما تروح اليها وتعرف من نفسك القدرة على فهمها
فعلى الرحب والسعة والآن فالى الملتقى بالغد

— الفصل الخامس —

(العوامل المساعدة على التكوين هي نفسها)

(المساعدة على التحويل في ظروف أخرى)

ذهب الشيخ في حال سبيله كالمعتاد وقفل صاحبانا
نجيب وفريد راجعين الى المدينة يتحادثان بما سمعاه ويضربان
الامثال ويقمان الشواهد ويطبقانها على الواقع وقد انفتح
أمامهما باب واسع من هذا المبحث ولاغرو فحياة كل واحد
منهما في جميع مظاهرها ودقائقها وما عايناه وعانيساه هي
مصدق لقول الشيخ